كيمياء السعادة

تأليف
الإمام حجة اللإسلام
أبى حامد الغزالى

اعتنى به وحققه
أبو سهل
نجاح عوض صيام

المقطم
للنشر والتوزيع

كيمياء السعادة

تأليف

الإمام حجة الإسلام

أبي حامد محمدبن محمدبن محمد الغزالي

اعتنى به وحققه

أبو سهل

نجاح عوض صيام

اسم الكتاب: كيمياء السعادة

المؤلف: أبي حامد الغزالي

المحقق: نجاح عوض

دار النشر: دار المقطم

سنة الطبع: ٢٠١٠

عدد الصفحات: ٤٨

حجم الكتاب: ١٢,٥ x ١٧

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٠٧٥٨

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٤٧٨-٠٢٠-٢

المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان-عابدين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

Tel: (00202) 27958215 - 27946109

Fax: (00202) 25082233

www.dar-elmokattam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكمل الخلق أجمعين وآله الطيبين الطاهرين، ورضي الله تبارك وتعالى عن أصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فإن كتاب (كيمياء السعادة) الذي بين أيدينا تأليف حجة الإسلام وبركة الأنام الإمام الزاهد الورع زين الدين أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ) رحمه الله تعالى من الكتب المفيدة الهامة النافعة تكلم فيه عن أنواع المعرفة التي تعين العبد على تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، وهي أربعة أنواع:

الأول: في معرفة النفس.

الثاني: في معرفة الرب.

الثالث: في معرفة الدنيا.

الرابع: في معرفة العقبى.

ويسرنا أن نقدم للقارئ الكريم الباحث عن السعادة في الدنيا

والآخرة هذا الكتاب المبارك الممتع، سائلين المولى عز وجل أن ينفع بهذا الكتاب وسائر مؤلفات الإمام الغزالي – رحمه الله تعالى – الذي أثرى المكتبة الإسلامية بشتى أنواع العلوم والمعرفة جزاه الله عنا خيرًا ونفعنا بعلومه في الدارين آمين.

هذا وقد قمت بتخريج آيات هذا الكتاب من المصحف الشريف، والأحاديث الشريفة من مصادرها الأصلية من كتب السنة المطهرة؛ وضبط ما أشكل من ألفاظه وشرح غريبه، والتعليق عليه حسب ما يلزم وما يقتضيه المقام، كما قمت أيضًا بعمل ترجمة للإمام المؤلف – رحمه الله تعالى – وقد اعتمدت على النسخة المطبوعة بمطبعة الجندي سنة ١٩٧٠م بعناية العلامة الشيخ محمد مصطفى أبو العلا – رحمه الله تعالى.

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ويجعله خالصًا لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المنصورة في: شوال ١٤٣٠هـ أكتوبر ٢٠٠٩م.

أبو سهل

نجاح عوض صيام

عفا الله عنه

ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه :

هو الإمام الفقيه الحجة المجتهد زين الدين محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، الطوسي، الشافعي، حجة الإسلام والمسلمين، وإمام أئمة الدين، رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

مولده ونشأته :

ولد رضي الله عنه سنة ٤٥٠ هـ في «**طوس**» وكان أبوه رجلًا صالحًا عفَّ القلب واليد، يغزل الصوف ويبيعه، ويختلف في أوقات فراغه إلى العلماء في حلقاتهم، والفقهاء في دروسهم، والوعاظ في مجالسهم؛ يستمع إليهم ويتطلع إلى صنيعهم في التعليم والإفادة، ويلاطفهم بما يفضل من قوته وحاجته.

وتأثر الوالد بهذه المجالس تأثرًا عظيمًا، جعله يضرع إلى الله أن يهب له ولدًا من صلبه يجلس مجالس أولئك الفقهاء والوعاظ الذين يعلمون الناس أمور دينهم.

واستجاب الله لدعائه فرزقه ولدين: **أحدهما**: أبو حامد الذي نتكلم عنه، **والآخر**: أخوه أحمد، الذي اشتغل بالوعظ وبرع فيه إلى درجة كبيرة.

ولما حضرت الوفاة ذلك الأب الصالح: وصَّى بأبي حامد وأخيه صديقًا له، متصوفًا، من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفًا عظيمًا على ما فاتني من التعلم، واشتهى استدراك ما فاتني في ولديَّ هذين، فعلِّمهما، ولا عليك أن ينفد في ذلك جميع ما أُخلِّفه لهما.

وأنفذ الصوفي وصيته، وأقبل تعليمهما، حتى فني المال القليل الذي تركه أبوهما، وتعذر عليه المضيُّ في تعليمهما أو تقديم الطعام الذي يقتاتان به، ولم يجد من السُّبل ما يحفظ به عليهما حياتهما، إلا أن يُلحقهما بمدرسة من تلك المدارس التي تقدم لطلاب العلم الغذاء والكساء.

وقد أحسن الرجل بذلك صُنعًا إلى هذين اليتيمين اللذين لا عائل لهما ولا مال يعينهما على الحياة. وكان هو السبب في سعادتهما، وعُلو درجاتهما.

فكان أبو حامد – صاحب الترجمة – أفقه أقرانه، وإمام أهل زمانه، وفارس ميدانه، شهد له بذلك الموافق والمخالف. وكان أخوه أحمد واعظًا كبير القدر، صاحب كرامات وإشارات.

ولذلك كان الإمام الغزالي رضي الله عنه يقول وهو يذكر صنيع ذلك الرجل: «**طلبنا العلم لغير الله فأبي أن يكون إلا الله**»، ومعنى ذلك أنهما طلباه ليكون وسيلة للعيش يُجْرى عليهما بسببه ما يُجرى على طلبه العلم، فكان أن أوصلهما إلى الغاية الحقيقية من طلب العلم، وهي معرفة الله حق

معرفته.

طلبه للعلم:

قرأ الإمام الغزالي في صباه طرفًا من الفقه، ببلده، على: الإمام أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى «جُرجان» فأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، ثم قدم «نيسابور» ولازم إمام الحرمين، وجدَّ واجتهد، حتى برع في المذهب، والخلاف، والجدل، والأصلين، والمنطق، وقرأ الحكمة، والفلسفة، وأحكم كل ذلك. وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدَّى للردِّ على مُبطليهم، وإبطال دعاويهم. وصنف في كل فن من هذه العلوم كتبًا، أحسن تأليفها، وأجاد وضعها.

وكان رضي الله عنه شديد الذكاء، شديد النظر، عجيب الفطرة، مُفرط الإدراك، محجاجًا، وصفه شيخه إمام الحرمين: بالبحر المغدق.

ولما مات إمام الحرمين، خرج الغزالي إلى المعسكر قاصدًا الوزير نظام الملك، إذ كان مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته ببغداد، وأمره بالتوجه إليها.

فقدم بغداد سنة ٤٨٤هـ ودرَّس بالنظامية، وأعجب الخلق حسن

كلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونُكتِه الدقيقة، وإشاراته اللطيفة، وأحبوه.

وأقام على تدريس العلم ونشره، بالتعليم، والفُتيا، والتصنيف، مدة، عظيم الجاه، عالي الرتبة، مسموع الكلمة، مشهور الاسم، تضرب به الأمثال، وتُشد إليه الرحال..

الغزالي والبحث عن الحقيقة:

يقول الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال:

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل.

وكان حاصل عملهم: قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة؛ حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتجليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر عليّ من العمل. فابتدأت بتحصيل علمهم: من مطالعة كتبهم، مثل: «قوت القلوب» لـ «**أبي طالب المكي**» – رحمه الله – وكتب: «**الحارث المحاسبي**»، والمتفرقات المأثورة عن: «**الجنيد**»، و «**الشبلي**»، و «**أبي يزيد البسطامي**» قدّس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصّلت ما

يمكن أن يحصّل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال، وتبدل الصفات.

وكم من الفرق بين أن يعلم حدُّ الصحة، وحدُّ الشبع، وأسبابهما وشروطهما، وبين أن يكون صحيحًا وشبعان، وبين أن يعرف حد السكر، وأنه: عبارة عن حالة تحصيل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حدّ السكر. وعلمه وهو سكران، وما معه من علمه شيء. والصاحي يعرف حد السكر، وأركانه، وما معه من السكر شيء. والطبيب في حالة المرض، يعرف حد الصحة، وأسبابها، وأدويتها وهو فاقد الصحة.

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها، وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا.

فعلمتُ يقينًا: أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم، فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع، بل بالذوق والسلوك...

... ثم لاحظت أحوالي: فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب.

ولاحظت أعمالي – وأحسنها: التدريس والتعليم – فإذا أنا فيها مُقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس؛ فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت: فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال...

ففارقت بغداد، وفرَّقت ما كان معي من المال، ولم أدّخر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال، ترخصًا بأن مال العراق مرصد للمصالح؛ لكونه وقفًا على المسلمين، فلم أر في العالم ما لا يأخذه العالم لعياله، أصلح منه.

ثم دخلت الشام، وأقمت به قريبًا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة، والخلوة، والرياضة، والمجاهدة: اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي.

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي.

ثم تحركت في داعية فريضة الحج، واستمداد من بركات مكة،

والمدينة، وزيارة رسول الله ﷺ، بعد الفراغ من زيارة الخليل، صلوات الله عليه. فسرت إلى الحجاز.

ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه.

فآثرت العزلة به أيضًا، حرصًا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغير في وجهة المراد، وتشوش صفوة الخلوة. وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين.

وانكشف لي في أثناء هذه الخطوات أمور، لا يمكن إحصاؤها، واستقصاؤها.

والقدر الذي أذكره لينتفع به: إني علمت يقينًا أن الصوفية: هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق.

بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئًا من سِيَرهم، وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو

خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة: فماذا يقول القائلون فغي طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهيرُ القلب بالكلية عما سوى الله تعالى.

ومفتاحُها - الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله.

وآخرها الفناء بالكلية في الله؟

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي - على التحقيق - أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد.

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه.

وعلى الجملة: ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول. وكل ذلك خطأ.

وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب «**المقصد الأسنى**»[١].

مؤلفاته:

لقد أثرى الإمام الغزالي رضي الله عنه المكتبة الإسلامية بالعديد من مؤلفاته المفيدة في كل علم وفن من فنون العلم والمعرفة، التي تدل على براعته وإمامته وعلو منزلته بين العلماء العاملين وأئمة الدين المتقين، ومن هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر:

١) إحياء علوم الدين.

٢) المنقذ من الضلال.

٣) الاقتصاد في الاعتقاد.

٤) ميزان العمل.

٥) بداية الهداية.

٦) القسطاس المستقيم.

٧) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال تحقيق شيخ الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود (ص ٥٩ – ٦٥).

٨) تهافت الفلاسفة.

٩) معيار العلم.

١٠) المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى.

١١) البسيط.

١٢) الوسيط.

١٣) الوجيز. وهي في الفقه.

١٤) المستصفى في أصول الفقه.

١٥) المنخول في أصول الفقه أيضًا.

١٦) كيمياء السعادة.

١٧) جواهر القرآن.

١٨) ياقوت التأويل في تفسير التنزيل، في أربعين مجلدًا «**مخطوط**».

١٩) منهاج العابدين.

٢٠) الأربعين في أصول الدين.

٢١) مشكاة الأنوار.

٢٢) الدرر الفاخرة في كشف علوم الآخرة.

٢٣) إلجام العوام عن علم الكلام.

٢٤) أيها الولد.

٢٥) منهاج العارفين.

٢٦) روضة الطالبين وعمدة السالكين.

نبذة من حِكَمِه وأقواله:

- من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال، فاعرف الحقَّ تعرف أهله.

- التوحيد أن ترى الأمور كلها من الله.

- من لم يكن له نصيب من علم الباطن، أخافُ عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه: التصديق وتسليمه لأهله، ومن كان فيه خصلتان لم يُفتح له من العلم بشيء: بدعة أو كِبر.

- السعادة كلها في أن يملك الرجلُ نفسَه، والشقاوة أن تملكه نفسه.

- ليس الورع في الجبهة حتى يُقطب، ولا في الخدِّ حتى يصغر، ولا في الظهر حتى يُجنأ، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلوب، أمّا من تلقاهُ ببشر فيلقاك بعبوس، يمن عليك بعمله، فلا أكثر الله في المسلمين من مثله.

- المستقل بنفسه بغير شيخ، كشجرة تنبت بنفسها، فإنها تجف عن قُرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر.

ثناء العلماء عليه :

قال الإمام السبكي في طبقات الشافعية في ترجمته الحافلة للإمام الغزالي:

.. أبو حامد الغزالي حجة الإسلام، ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرّز في المنقول منها والمفهوم.. جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلاد مقاله، ويحمي حوزة الدين، ولا يُلطخ بدم المعتدين حد نصاله، حتى أصبح الدين وثيق العُرى، وانكشفت غياهب الشبهات..

وقال ابن النجار فيما نقله الذهبي في سير أعلام النبلاء:

أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق، ورباني الأمة بالاتفاق، مجتهد أوانه، وعين أوانه.

- ووصفه شيخه إمام الحرمين: بالبحر المغدق.

- وقال تلميذه الإمام محمد بن يحيى: الغزالي هو الشافعي الثاني.

- وقال معاصره عبد الغافر الفارسي، خطيب نيسابور:

أبو حامد الغزالي، حجة الإسلام، وإمام أئمة الدين، لم تر العيون مثله، لسانًا، وبيانًا، ومنطقًا، وخاطرًا، وذكاء، وطبعًا... قد نيسابور مختلفًا

إلى درس إمام الحرمين، في طائفة من الشبان من طوس، وجدّ واجتهد حتى تخرج عن مدة قريبة، وبذّ الأقران... وظهر اسمه في الآفاق، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق، حتى أدت الحال به إلى أن رُسم للمصير إلى بغداد، للقيام بتدريس المدرسة الميمونة النظامية بها، فصار إليها، وأُعجب الكلُّ بتدريسه، ومناظرته، ما لَقي مثل نفسه، وصار بعد إمامة خُراسان إمام العراق... وعلت حشمته ودرجته في بغداد، حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة.

- **وقال الإمام النظَّار أسعد الميهيني (ت ٥٢٠ هـ)**: لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية:

كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه، وساد في شبيبته، حتى أنه درَّس بالنظامية ببغداد وسنه أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رءوس العلماء، وكان ممن حضر عنده: أبو الخطاب، وابن عقيل، وهما من رءوس الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته وإطلاعه، - قال ابن الجوزي - وكتبوا كلامه في مصنفاتهم.

وفاته:

... واستمر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في رحلته إلى الشام وزيارة

بيت المقدس وغيرهما، نحو عشر سنوات، وكان فيها – كما يقول الإمام السبكي –: يجول في البلدان ويزور المشاهد، ويطوف على المساجد، ويأوى إلى القِفار، ويروضُ نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار، ويكلِّفها مشاقّ العبادات، بأنواع القُرب والطاعات، إلى أن صار قطب الوجود، والبركة العامة لكل موجود، والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن، والسبيل المنصوب إلى مركز الإيمان؛ رجع إلى بغداد، وعقد بها مجلس الوعظ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة، وحدّث بكتاب «الإحياء» ثم عاد إلى خراسان، ودرّس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة، وكل قلبه معلق بما فُتح عليه من الطريق. ثم رجع إلى طوس، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء، وخانقاه للصوفية، ووزّع أوقاته على وظائف، من ختم القرآن، ومجالسة أرباب القلوب، والتدريس لطلبة العلم، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات؛ إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى ورضوانه، طيب الثناء، أعلى منزلة من نجم السماء، لا يكرهه إلا حاسدٌ أو زنديق، ولا يسومه بسوء إلا حائد عن سواء الطريق، وكانت وفاته – قدس الله روحه – بطوس يوم الاثنين، رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، ومشهده بها يزار بمقبرة الطابران[١].

---

(١) مصادر الترجمة:

=

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أصعد قوالب الأصفياء بالمجاهدة، وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدة، وحلَّى ألسنة المؤمنين بالذكر، وجلى خواطر العارفين بالفكر، وحرس سواد العباد عن الفساد، وحبس مراد الزهاد على

١) المنقذ من الضلال (ص ٥٩ – ٦٥).

٢) المنتظم لابن الجوزي (٩/ ١٦٨).

٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢).

٤) طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ١٩١).

٥) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ١٧٣).

٦) وفيات الأعيان (٤/ ٢١٦).

٧) مرآة الجنان (٣/ ١٤٥).

٨) طبقات الصوفية للمناوي (٢/ ٢٩١).

٩) شذرات الذهب (٤/ ١٣).

١٠) الأعلام للزركلي (٧/ ٢٢).

١١) مقدمة إحياء علوم الدين للدكتور بدوي طبانة.

السداد، وخلَّص أشباح المتقين من ظلم الشهوات، وصفّى أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات، وقَبِلَ أعمال الأخيار بأداء الصلوات، وأيّد خصال الأحرار بأسدّ الصِّلات.

أحمده حمد من رأى آيات قدرته وقوته، وشاهد الشواهد من فردانيته ووحدانيته، وطرق طوارق سرّه وبرّه، وقطف ثمار معرفته من شجر سجده وجُوده، وأشكره شكر من اخترق واغترف من نهر فضله وإفضاله.

وأومن به إيمان من آمن بكتابه وخطابه وأنبيائه وأصفيائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بعثه لأصلاب الفسقة والفجرة قاصمًا، ولعُرَى الجاحدين والمارقين فاصمًا، ولباغي الشك والشرك قاهرًا، ولأتباع الحق والإحسان ناصرًا؛ فصلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.



عنوان معرفة النفس

اعلم أن الكيمياء الظاهرية لا تكون في خزائن العوام وإنما تكون في خزائن الملوك، فكذلك كيمياء السعادة[١] لا تكون إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى؛ ففي السماء جواهر الملائكة، وفي الأرض قلوب الأولياء العارفين، فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة فقد أخطأ الطريق، ويكون عمله كالدينار البهرج[٢]، فيظن في نفسه أنه غني وهو مفلس في القيامة كما قال سبحانه وتعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ومن رحمة الله سبحانه وتعالى لعباده أن أرسل إليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي يعلِّمون الناس نسخة الكيمياء، ويعلمونهم كيف يجعلون القلب في كُور[٣] المجاهدة، وكيف يطهرون

(١) كيمياء السعادة: تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها، واكتساب الفضائل وتحليتها بها.

وقد عرف الجرجاني أيضًا كيمياء العوام وكيمياء الخواص. فكيمياء العوام هي استبدال المتاع الأخروي الباقي بالحطام الدنيوي الفاني. وكيمياء الخواص هي تخليص القلب عن الكون باستئثار المكون. (انظر كتاب التعريفات للجرجاني – ص ١٨٩).

(٢) البهرج: الباطل.

(٣) الكور: مجمرة الحداد التي توقد فيها النار. ويعني بقوله: «يجعلون القلب في كور
=

القلب من الأخلاق المذمومة، وكيف يؤدونه لطرق الصفاء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] أي يطهرهم من الأخلاق المذمومة ومن صفات البهائم، ويجعل صفات الملائكة لباسهم وحليتهم.

ومقصود هذه الكيمياء: أن كل ما كان من صفات النقص يتعرى منه، وكل ما يكون من صفات الكمال يلبسه. وسر هذه الكيمياء أن ترجع من الدنيا إلى الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] وفضل هذه الكيمياء طويل.



المجاهدة» أي يطهرونه بالمجاهدة كما يطهر الحداد الحديد من الصدأ بالنار.

فصل في معرفة النفس

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] وقال النبي ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»(١) وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك؟

فإن قلت: إني أعرف نفسي، فإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلب الشرب؛ والدواب تشاركك في هذه الأمور، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت! ومن أين جئت إلى هذا المكان! ولأي شيء خُلقت! وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك!.

---

(١) قال أبو المظفر بن السمعاني في القواطع: إنه لا يُعرف مرفوعًا، وإنما يحكي عن يحيى بن معاذ الرازي؛ يعني من قوله وكذا قال النووي: إنه ليس بثابت، وقيل في تأويله: من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء. انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٦٥٧.

وقد جمعت في باطنك صفات، منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع، ومنها صفات الملائكة؛ فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك وعارية عندك، فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة؛ فإن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح، فإن كنت منهم فاجتهد في إعمال الجوف والفرج. وسعادة السباع في الضرب والفتك. وسعادة الشياطين في المكر والشر والحِيَل، فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم. وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك، حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء رُكِّبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها ولكن خلقها حتى تكون أسراك، وتسخرها للسفر الذي قُدّامك،وتجعل إحداها مركبك والأخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك، فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك، وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة، فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني حتى تعرف من نفسك شيئًا قليلًا، فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من

القشور، لأن الحق يكون عنه محجوبًا.

فصل

إذا شئت أن تعرف نفسك فاعلم أنك من شيئين:

الأول: هذا القلب، والثاني: يسمى النفس والروح. والنفس هو القلب الذي تعرفه بعين الباطن. وحقيقتك الباطن؛ لأن الجسد أول وهو الآخر والنفس آخر وهو الأول؛ ويسمى قلبًا، وليس القلب هذه القطعة اللحمية التي في الصدر من الجانب الأيسر، لأنه يكون في الدواب والموتى. وكل شيء تبصره بعين الظاهر فهو من هذا العالم الذي يسمى عالم الشهادة، وأما حقيقة القلب فليس من هذا العالم، لكنه من عالم الغيب فهو في هذا العالم غريب، وتلك القطعة اللحمية مركبة، وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملك، ومعرفة الله ومشاهدة جمال الحضرة صفاته، والتكليف عليه والخطاب معه، وله الثواب وعليه العقاب، والسعادة والشقاء تلحقانه، والروح الحيواني في كل شيء تبعه ومعه. ومعرفة حقيقته ومعرفة صفاته مفتاح معرفة الله سبحانه وتعالى، فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية، ومن ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود.

فصل

أما سؤالك ما حقيقة القلب؟ فلم يجيء في الشريعة أكثر من قول الله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] لأن الروح جزء من جملة القدرة الإلهية وهو من عالم الأمر، قال الله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالإنسان من عالم الخلق من جانب، ومن عالم الأمر من جانب، فكل شيء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية فهو من عالم الخلق؛ وليس للقلب مساحة ولا مقدار، ولهذا لا يقبل القسمة، ولو قبل القسمة لكان من عالم الخلق، وكان من جانب الجهل جاهلًا ومن جانب العلم عالمًا، وكل شيء يكون فيه علم وجهل فهو محال. وفي معنى آخر هو من عالم الأمر؛ لأن عالم الأمر عبارة عن شيء من الأشياء لا يكون للمساحة والتقدير طريق إليه. وقد ظن بعضهم أن الروح قديم فغلطوا. وقال قوم: إنه عَرَضٌ فغلطوا، لأن العرض لا يقوم بنفسه ويكون تابعًا لغيره. فالروح هو أصل ابن آدم، وقالب ابن آدم تبع له، فكيف يكون عرضًا! وقال قوم إنه جسم فغلطوا، لأن الجسم يقبل القسمة. فالروح الذي سميناه قلبًا وهو محل معرفة الله تعالى ليس بجسم ولا عرض بل هو من جنس الملائكة.

ومعرفة الروح صعبة جدًا، لأنه لم يرد في الدين طريق إلى معرفته لأنه

لا حاجة في الدين إلى معرفته، لأن الدين هو المجاهدة والمعرفة علامة الهداية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ومن لم يجتهد حق اجتهاده لم يجز أن يتحدث معه في معرفة حقيقة الروح. وأول أُسِ المجاهدة أن تعرف عسكر القلب، لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر لم يصح له الجهاد.

فصل

اعلم أن النفس مركب القلب، وللقلب عساكر كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ [المدثر: ٣١] والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلبًا لسعادته، وسعادته معرفة ربه عز وجل، ومعرفة ربه تعالى تحصل له من صنع الله وهو من جملة عالمه. ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس، والحواس من القلب والقالب مركبه، ثم معرفة صيده ومعرفة شبكته، والقالب لا يقوم إلا بالطعام والشراب والحرارة والرطوبة، وهو ضعيف على خطر من الجوع والعطش في الباطن، وعلى خطر من الماء والنار في الظاهر، وهو مقابل أعداء كثيرة.

فصل

وتحتاج أن تعرف العسكرين؛ وذلك أن العسكر الظاهر هو الشهوة

والغضب ومنازلهم في اليدين والرجلين والعينين والأذنين وجميع الأعضاء؛ وأما العسكر الباطن فمنازله في الدماغ وهو قوي الخيال والتفكر والحفظ والتذكر والوهم، ولكل قوة من هذه القوى عمل خاص، فإن ضعف واحد منهم ضعف حال ابن آدم في الدارين. وجملة هذين العسكرين في القلب وهو أميرهما، فإن أمَرَ اللسان أن يذكر ذكر، وإن أمر اليد أن تبطش بطشت، وإن أمر الرِجل أن تسعى سعت، وكذلك الحواس الخمس حتى يحفظ نفسه كيما يدخر الزاد للدار الآخرة ويحصل الصيد وتتم التجارة ويجمع بذر السعادة، وهؤلاء طائعون للقلب كما أن الملائكة طائعون للرب سبحانه وتعالى لا يخالفون أمره.



فصل في معرفة القلب وعسكره

اعلم أنه قيل في المثل المشهور: إن النفس كالمدينة، واليدين والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية واليها، والقوة الغضبية شحنتها[١]، والقلب ملكها، والعقل وزيرها. والملك يدبرهم حتى تستقر مملكته وأحواله، لأن الوالي وهو الشهوة، كذاب فُضُولي مخلط، والشحنة وهو الغضب شرير قتّال خرّاب، فإن تركهم الملك على ما هم عليه هلكت المدينة وخربت. فيجب أن يشاور الملك الوزير ويجعل الوالي والشحنة تحت يد الوزير، فإذا فعل ذلك استقرت أحوال المملكة وتعمرت المدينة. وكذلك القلب يشاور العقل ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه حتى تستقر أحوال النفس ويصل إلى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية، ولو جعل العقل تحت يد الغضب والشهوة هلكت نفسه وكان قلبه شقيًا في الآخرة.

فصل

اعلم أن الشهوة والغضب خادمان للنفس جاذبان، يحفظان أمر الطعام والشراب والنكاح لحمل الحواس. ثم النفس خادم الحواس شبكة

---

(١) الشِّحنة: أعوان السلطان الذين يقومون بضبط البلاد.

العقل وجواسيسه يبصر بها صنائع الباري جلّت قدرته، ثم الحواس خادم العقل وهو القلب سراج وشمعة يبصر بنوره الحضرة الإلهية، لأن الجنة وهي نصيب الجوف أو الفرج محتقرة في جنب تلك الجنة. ثم العقل خادم القلب، والقلب مخلوق لنظر جمال الحضرة الإلهية. فمن اجتهد في هذه الصنعة فهو عبد حق من غلمان الحضرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] معناه أنا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والعسكر، وجعلنا النفس مركبة حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين، فإذا أراد أن يؤدي حق هذه النعمة جلس مثل السلطان في صدر مملكته، وجعل الحضرة الإلهية قبلته ومقصده، وجعل الآخرة وطنه وقراره، والنفس مركبه، والدنيا منزله، واليدين والقدمين خدامه، والعقل وزيره، والشهوة عامله، والغضب شحنته، والحواس جواسيسه. وكل واحد موكل بعالم من العوالم يجمع له أحوال العوالم. وقوة الخيال في مقدم الدماغ كالنقيب يجمع عنده أخبار الجواسيس، وقوة الحفظ في وسط الدماغ مثل صاحب الخريطة(١) يجمع الرقاع من يد النقيب(٢) ويحفظها إلى أن يعرضها على العقل، فإذا بلغت

---

(١) الخريطة: وعاء من جلد أو نحوه يُشدّ على ما فيه.

(٢) النقيب: كبير القوم المعنىّ بشؤونهم.

هذه الأخبار إلى الوزير يرى أحوال المملكة على مقتضاها.

فإذا رأيت واحدًا منهم قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب، فعليك بالمجاهدة، ولا تقصد قتلها؛ لأن المملكة لا تستقر إلا بهما. فإذا فعلت ذلك كنت سعيدًا، وأديت حق النعمة، ووجبت لك الخِلعة في وقتها، وإلا كنت شقيًّا ووجب عليك النكال والعقوبة.

فصل

تمام السعادة مبني على ثلاثة أشياء: قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العلم، فيحتاج أن يكون أمرها متوسطًا لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحُمق فيهلك؛ فإذا توسطت القوتان بإشارة قوة العدل دل على طريق الهداية. وكذلك الغضب إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل، وإذا نقص ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة. وكذا الشهوة إذا زادت كان الفسق والفجور، وإن نقصت كان العجز والفتور، وإن توسطت كان العفة والقناعة وأمثال ذلك.

فصل

اعلم أن للقلب مع عسكره أحوالًا وصفات بعضها يسمي أخلاق

السوء، وبعضها أخلاق الحُسن، فبالأخلاق الحسنة يبلغ درجة السعادة، والأخلاق السيئة هلاكه وخروجه للشقاء.

وهذه كلها[١] تبلغ أربعة أجناس: أخلاق الشياطين، وأخلاق البهائم، وأخلاق السباع، وأخلاق الملائكة. فأعمال السوء: من الأكل والشرب والنوم والنكاح، هي أخلاق البهائم، وكذلك أعمال الغضب: من الضرب والقتل والخصومة، هي أخلاق السباع، وكذلك أعمال النفس: وهي المكر والحيلة والغش وغير ذلك، هي أخلاق الشياطين، وكذلك أعمال العقل: التي هي الرحمة والعلم والخير، هي أخلاق الملائكة.

فصل

واعلم أن في جلد ابن آدم أربعة أشياء: الكلب، والخنزير، والشيطان، والمَلَكَ. والكلب مذموم في صفاته، وليس بمذموم في صورته. وكذلك الشيطان والملائكة ذمهم ومدحهم[٢] في صفاتهم، وليس ذلك في صورهم وخلقهم. وكذلك الخنزير مذموم في صفاته، وليس بمذموم في

(١) أي الأخلاق السيئة والأخلاق الحسنة معًا.

(٢) أي ذم الشياطين ومدح الملائكة؛ لأن الشياطين تذم فقط ولا تمدح، والملائكة تمدح فقط ولا تذم.

خلقته.

وقد أمر ابن آدم بأن يكشف ظلم الجهل بنور العقل خوفًا من الفتنة كما قال النبي ﷺ: **«ما من أحد إلا وله شيطان ولي شيطان، وإن الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته»** (١) وكذلك الشهوة والغضب ينبغي أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعلا شيئًا إلا بأمره، فإن فعل ذلك صح له حسن الأخلاق، وهي صفات الملائكة وهي بذرة السعادة. وإن عمل بخلاف ذلك فخدم الشهوة والغضب صح له الأخلاق القبيحة، وهي صفات الشياطين وهو بذر الشقاء، فيتبين له في نومه كأنه قائم مشدود الوسط يخدم الكلب والخنزير، وكان مثله كمثل رجل مسلم يأخذ رجالًا مسلمين يحبسهم عند كافرين. فكيف يكون حالك يوم القيامة إذا حبست الملك وهو العقل تحت يد الشهوة والغضب وهما الكلب والخنزير؟

---

(١) روى مسلم في صحيحه (٢٨١٥) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلًا قالت: فغِرتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: **«مالك يا عائشة! أغرت؟»** فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«قد جاءك شيطانك؟»** قالت: يا رسول الله! أو معي شيطان؟ قال: **«نعم»** قلت: ومع كل إنسان؟ قال: **«نعم»** قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: **«نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم»**.

فصل

واعلم أن الإنسان في صورة ابن آدم اليوم، وغدًا تنكشف له المعاني فتكون الصور في معنى المعاني؛ فأما الذي غلبه عليه الغضب فيقوم في صورة الكلب، وأما الذي غلب عليه الشهوة فيقوم في صورة الخنزير؛ لأن الصورة تابعة للمعاني، وإنما يبصر النائم في نومه ما صح في باطنه. وإنما عرفت أن الإنسان في باطنه هذه الأربعة، فيجب أن يراقب حركاته وسكناته، ويعرف من أي الأربعة هو، فإن صفاته تحصل في قلبه وتبقى معه إلى يوم القيامة، وإن بقي من جملة الباقيات الصالحات شيء فهو بذر السعادة، وإن بقي معه غير ذلك فهو بذر الشقاء، وابن آدم لا ينفك ولا ينفصل عن حركة أو سكون، وقلبه مثل الزجاج. وأخلاق السوء كالدخان والظلمة، فإذا وصل إليه ذلك أظلم عليه طريق السعادة. وأخلاق الحسن كالنور والضوء، فإذا وصل إلى القلب طهره من ظلم المعاصي كما قال رسول الله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»[1]. والقلب إما مضيء أو مظلم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٦)، والترمذي (١٩٨٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، ولفظه: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» وقال الترمذي: حسن صحيح.

فصل

واعلم أن الشهوة والغضب اللتين في البهائم جعلتا أيضًا في ابن آدم، ولكنه أعطي شيئًا آخر[١] زيادة عليها للشرف والكمال، وبذلك تحصل له معرفة الله تعالى، وجملة عجائب صنعه، وبه يخلص نفسه من يد الشهوة والغضب وتحصل له صفات الملائكة، ولذلك يظفر بالسباع والبهائم وتصير كلها مسخرة له كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [الجاثية: ١٣].



(١) وهو العقل.

فصل في عجائب القلب

اعلم أن للقلب بابين للعلوم: واحد للأحلام، والثاني لعالم اليقظة، وهو الباب الظاهر إلى الخارج؛ فإن نام غلق باب الحواس، فيفتح له باب الباطن، ويكشف له غيب من عالم الملكوت ومن اللوح المحفوظ فيكون مثل الضوء، وربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام. وأما ما كان من الظاهر فيظن الناس أن به اليقظة وأن اليقظة أولى بالمعرفة مع أنه لا يبصر في اليقظة شيء من عالم الغيب، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يبصر من طريق الحواس.

فصل

وتحتاج أن تعرف في ضمن ذلك أن القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضًا؛ لأن فيه صورة كل موجود؛ وإذا قابلتَ المرآة بمرآة أخرى حلَّت صور ما في إحداهما في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغًا من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولًا بها كان عالم الملكوت محجوبًا عنه، وإن كان في حال النوم فارغًا من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ، وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال، لذلك

يكون الذي يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفًا. فإذا مات، أي القلب، بموت صاحبه لم يبق خيال ولا حواس، وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال، ويقال له: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فصل

واعلم أنه ما من أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم وبيان الحق على سبيل الإلهام، وذلك لا يدخل من طريق الحواس بل يدخل في القلب لا يعرف من أين جاء؛ لأن القلب من عالم الملكوت، والحواس مخلوقة لهذا العالم – عالم الملك – فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغًا من شغل الحواس.

فصل

ولا تظنن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة. فإذا جلس في مكان خالٍ وعطَّل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائمًا: «الله الله الله» بقلبه دون لسانه، إلى أن يصير لا خبر

معه من نفسه ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئًا إلا الله سبحانه وتعالى، انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة الجليلة، وانكشف له ملكوت السموات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه كما قال النبي ﷺ: «**زُويت**[1] **لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها**»[2] وقال الله عز وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٧٥] لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها كانت من هذا الطريق لا من طريق الحواس كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] معناه الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية؛ وهو طريق الصوفية في هذا الزمان. وأما طريق التعليم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة،

(١) أي: جُمعت.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها...**» الحديث.

وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم؛ والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم، وهو من عجائب القلب. ومن لم يبصر لم يصدق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩] وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

فصل

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم في أصل الخلقة موضوع لهذا، كالحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم، إلا الذي صدأ فيحتاج إلى إجلاء، أو جدب فيحتاج إلى صقل أو سبك، لأنه قد تلف، وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصي لم يبلغ هذه الدرجة، وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على فطرة الإسلام»(١) وقال الله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال سبحانه وتعالى:

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٣)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «كل مولود يولد على الفطرة...» الحديث.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت: ٦] فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد. والطلب لا يحصل إلا بالمجاهدة – طلب شيخ بالغ عارف قد مشى في هذا الطريق – وإذا حصل هذان الشيئان لأحد فقد أراد الله له التوفيق والسعادة بحكم أزلي حتى يبلغ إلى هذه الدرجة.



فصل في أن اللذة والسعادة لابن آدم في معرفة الله سبحانه وتعالى

اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته ولذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خُلق له؛ فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة؛ ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى، لأنه مخلوق لها. وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل «الشطرنج» إذا عرفها فرح بها، ولو نهي عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها(١)، ولم يصبر عن المشاهدة، لأن لذة القلب المعرفة، وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر؛ ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو علم الملك لكان أعظم فرحًا.

وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى، لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته، فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته. وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهي تبطل بالموت، ولذة معرفة

---

(١) أي فرح بهذه المعرفة.

الربوبية متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته أكثر، وضوؤه أكبر، لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

فصل

واعلم أن نفس ابن آدم مختصرة من العالم، وفيها من كل صورة في العالم أثر منه؛ لأن هذه العظام كالجبال، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ورأسه مثل السماء، وحواسه مثل الكواكب، وتفصيل ذلك طويل؛ وأيضًا فإن في باطنه صُنَّاع العالم، لأن القوة في المعدة كالطباخ، والتي في الكبد كالخباز، والتي في الأمعاء كالقصَّار[١]، والتي تبيض اللبن وتحمر الدم كالصبَّاغ. وشرح ذلك طويل، والمقصود أن تعلم كم في باطنك من عوالم مختلفة كلهم مشغولون بخدمتك، وأنت في غفلة عنهم، وهم لا يستريحون، ولا تعرفهم أنت ولا تشكر من أنعم عليك بهم!!



(١) القصار: الذي يقوم بغسل الثياب.

فصل في معرفة تركيب الجسد ومنافع الأعضاء التي يقال عنها في علم التشريح

وهو علم عظيم، والخلق غافلون عنه، وكذلك علم الطب. فكل من أراد أن ينظر في نفسه وعجائب صنع الله تعالى فيها، يحتاج إلى معرفة ثلاثة أشياء من الصفات الإلهية:

الأولى: أن يعرف أن خالق الشخص قادر على الكمال وليس بعاجز، وهو الله سبحانه وتعالى. وليس عمل في العالم بأعجب من خلق الإنسان من ماء مهين، وتصوير هذا الشخص بهذه الصورة العجيبة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] فإعادته بعد الموت أهون عليه؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء.

الثانية: معرفة علمه سبحانه وتعالى وأنه محيط الأشياء كلها؛ لأن هذه العجائب والغرائب لا تمكن إلا بكمال العلم.

الثالثة: أن تعلم أن لطفه ورحمته وعنايته متعلقة بالأشياء كلها، وأنها لا نهاية لها، لما ترى في النبات والحيوان والمعادن في سعة القدرة وحسن الصور والألوان.

فصل في تفصيل خلقة بني آدم لأنها مفتاح معرفة الصفات الإلهية وهو علم شريف

وذلك معرفة عجائب الصنائع الإلهية، ومعرفة عظم الله سبحانه وتعالى وقدرته، وهو مختصر معرفة القلب. وهو علم شريف إذ هو معرفة الصنائع الإلهية، لأن النفس كالفرس، والعقل كالراكب، وجماعهما الفارس، ومن لم يعرف نفسه وهو يدعي معرفة غيره فهو كالرجل المفلس الذي ليس له طعام لنفسه وهو يدعي أنه يقوت فقراء المدينة، فهذا محال.

فصل

إذا عرفت هذا العز والشرف والكمال والجمال والجلال، بعد أن عرفت جوهر القلب أنه جوهر عزيز قد وُهب لك وبعد ذلك خفي عنك، فإن لم تطلبه وغفلت عنه وضيعته كان ذلك حسرة عظيمة عليك يوم القيامة؛ فاجتهد في طلبه، واترك أشغال الدنيا كلها! وكل شرف لم يظهر في الدنيا فهو في الآخرة فرح بلا غمّ، وبقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، ومعرفة بلا جهل، وجمال وجلال عظيمان؛ وأما اليوم فليس شيء أعجز منه لأنه مسكين ناقص؛ وإنما الشرف غدًا إذا طرح من هذه الكيمياء على جوهر قلبه حتى يخلص منه شبه البهائم، ويبلغ درجة

الملائكة، فإن رجع إلى شهوات الدنيا فضلت عليه البهائم يوم القيامة لأنها تصير على التراب، ويبقى هو في العذاب. نعوذ بالله من ذلك، ونستجير به، وهو نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفهرس

